محسن شرقي كبير

الدمرداش باشا

﴿ نشأته ﴾ : ولد صاحب الترجمة في القاهرة سنة ١٢٧٠ هجرية في زاوية جده بقرية الدمرداش بالعباسية. وهو ابن الشيخ مصطفى بن صالح اغا أحد المماليك الشراكسة المعاصرين لعزيز مصر الكبير محمد علي باشا . وقد تزوج صالح اغا من احدى كريمتي السيد محمد محمد الدمرداش شيخ السادة الدمرداشية اذ ذاك ورزق منها بالشيخ مصطفى والد المترجم لهُ وهو الذي خلف السيد محمد محمد الدمرداش في تلك الطريقة

وقد عني الشيخ مصطفى بتربية ابنه عبد الرحيم فارسله اولاً الى الكتّاب ثم الى الجامع الازهر الشريف وهناك تلقى العلم على كبار العلماء ومنهم شيخ الاسلام الشيخ الرافعي

ولما توفى الشيخ مصطفى في سنة ١٢٩٤ هجرية اقيم صاحب الترجمة شيخاً للسادة الدمرداشية مكان ابيه . وكان يبلغ من العمر اذ ذاك اربعاً وعشرين سنة . وظل فيها الى ان وافتهُ المنية

﴿ طريقته ﴾ : طريقة السادة الدمرداشية كغيرها من الطرق الصوفية قوامها الزهد والنسك والعبادة وتمتاز بخلوها من الحركات المنافية غير الطبيعية وقت الذكر. فيجتمع المريدون « للحضرة » وقراءة الاوراد في مساء كل خميس عقب صلاة العشاء تحت قبة أبي عبد الله المحمد الدمرداش ويأخذون في تلاوة القرآن الكريم باصوات خاشعة مبهجة ثم يشفعونها بتلاوة اذكار وادعية اخرى يتضرعون بها الى المولى جل جلاله . ومن المريدين من يختلي في صوامع « خلاوي » اعدت لهم في بناء مسجد المحمدي ثلاثة ايام بلياليها في نصف شعبان من كل عام يصومون نهارها ولا ينامون ليلها ولا يكلمون احداً ولا يخرجون الا للوضوء او الصلاة وفي خلال هذه الايام يطوف النقيب بعد الغروب « بالمختلين » يوزع عليهم كؤوس السكر المذاب في ماء ممزوج بعصير الليمون ثم يأتيهم باطباق الارز المطبوخ بالسيرج والقهوة

ويظل القراء طيلة هذه الليالي الثلاث في الزاوية يرتلون القرآن باصواتهم ترتيلاً فتنشرح لقراءتهم صدور المختلين ويذهب الكرى عن اعينهم . والمريدون في خلوتهم يقضون اياماً عدتها الايام التي اقامها النبي صلى الله عليه وسلم ومعهُ ابو بكر الصديق في الغار وقت هجرته من مكة الى المدينة

ذلك هو نظام الطريقة التي تولى امرها المترجم له من عام ١٢٩٤ هـ الى ١٣٤٨ هـ فحيا اربعة وخمسين مولداً . وقد نهض بالمشيخة نهضة اعجب بها كثير من العلماء والعظماء والتجار والاعيان وارباب الصناعات فدخلوها زمراً حتى صار عدد رجالها قريباً من ٤٠٠٠ مريد

وهو عدد وفير يبلغ اضعافاً مضاعفة لما كان عليه في عهد اسلافه الكرام. وقد ألف بين قلوب اتباعه وجعلهم إخواناً على سرر يواسي قويهم ضعيفهم ويشاطرون بعضهم بعضاً سراء الحياة وضراءها. ولم يفته ان يجعل محل اجتماعهم لائقاً بهم فجدد بناء الزاوية وحوّلها الى مسجد رحب وادخل فيه النور الكهربائي واصلح دورة المياه وجعلها على الطراز الصحي الحديث. وعبّد الطريق الموصل الى المسجد فجعله شارعاً منسقاً لطيفاً

﴿ صفاته ﴾ : كان الفقيد العظيم حميد الصفات رضي الخلال. ورث عن والده الصلاح ولين الجانب ودماثة الخلق وطيب السريرة. وورث عن جده لوالدته الصلابة في الحق والجرأة والصراحة والاعتماد على النفس. واكسبته حياته الاجتماعية البشاشة والحلم والظرف. وقد تجلّت هذه الصفات كلها روح التواضع لله والعمل على جلب مثوبته. ودفع عقوبته. فجعلت منهُ بصفة عامة رجلاً نابه القصد كريم المروءة غزير النيل عظيم القدر لا يخفض رأساً ولا تغمز لهُ قناة

وما تاريخ حياته الحافل بجلائل الاعمال الاّ تطبيقاً لهذه الصفات. فذا رأيته مشمراً مهتمّاً يؤم ديواناً او يقصد كبيراً فاعلم انهُ ماض للخير يسعى لانجاز عمل كاشف به عن تقطعت بهم الاسباب فلم يجدوا ملجأً الاّ هُ. واذا شهدته متهللاً وضاء الجبين فأيقن ان خيراً قد تمّ على يديه فطمأنت نفسه وانطبعت حالته النفسية على اسارير محياه. واذا قابلته مقطب الوجه عابساً — وقليلاً ما يكون ذلك — فثمت صعب لم يذلل وهو ما يزال به يعالجه بما أوتي من حيلة وطول حتى يظفر بما يريد. واذا سمعته يلج في مناقشة ويحتد فثق انهُ يناضل عن الحق الذي يعتقده وما ناضل عن غير الحق ولا سار مع الهوى. واذا انصت اليه وهو منشرح الصدر منبسط في حديثه فأنت امام انيس سمير حلو الفكاهة. عذب الاشارة خفيف الروح والظل والهواء. واذا أوى الى بيته حيث تنتظره امته وزوجه وكريمته رأيت الوفاء يفيض من شفتيه ورأيت كيف يكون احترام الاخوة وحب العمولة وحنان الابوة. واذا رأيته بعد ذلك يجود بآلاف البدرات من حر ماله ومال زوجه وكريمته ليدفع عن الفقراء والبائسين آصار الحياة العسيرة فاعلم انه يعطي درساً لغيره في الرياضة على عمل البر وما قصد غير الله فلهُ وحده ما وهب، وللانسانية ما ابلى

﴿ حياته العامة ﴾ : قلنا ان الفقيد نشأ نشأة ازهرية. وكان الازهر اذ ذاك مهد الثقافة في مصر. فلما شبَّ وترعرع وجد من نفسه ميلاً لقراءة كتب التاريخ وتقويم البلدان وقد حبب اليه هذا الشغف زيارة البلاد الخارجية فما اتيحت له الفرصة فيما بعد زار اوربا والشام والقسطنطينية وفلسطين. وكان اختلاطه بكبار رجال الازهر ومن تخرجوا معه امثال المرحومين الشيخ محمد عبده، وسعد زغلول باشا وفتحي زغلول باشا وقاسم بك

امين والشيخ عبد الكريم سلمان واختلاطه برجال السياسة امثال المرحومين رشدي باشا وثروت باشا وبرجال المال امثال حسن باشا سعيد وطلعت بك حرب وبرجال السيف امثال المرحوم ابراهيم باشا فتحي وغيره وبرجال الدين امثال صاحب الفضيلة الاستاذ المراغي وكان اجتماعه بهؤلاء وبغيرهم من الانجليز والاجانب ورجال الصحافة من العوامل الهامة التي صقلت معلوماته العامة وجعلته يستطيع ان يساير كل ندي يحضره فاذا ناقشته في اي موضوع الفيته حاضر البديهة ملمًّا به. وقد ساعدته على ذلك قوة ذاكرته المدهشة التي لازمته حتى الوفاة

وكان اختلاطه بالجمهور في حفلات الذكر وقيامه بما تتطلبه تلك الحفلات على احسن وجه من الاسباب التي مكنت له في قلوب الناس وجعلته محبوباً لديهم. فكان موضع الاحترام من العظماء. كما كان موضع الاجلال والمحبة من الدهماء ولم تنسه كثرة اختلاطه بالجمهور ان يقوم بأدق ما يفرضه واجب اللياقة نحو كبار ضيوفه وزواره من اية جنسية كانوا

وكل ذلك لم يصرفه عن تنمية موارده وأمواله فكان في ذلك موفقاً ايما توفيق وقد عمل بمقتضى القول المأثور « اعمل لدنياك كأنك تعيش ابدا . واعمل لآخرتك كأنك تموت غدا »

وأكبر الظن انهُ وفق في الحالتين. فكان رجلاً عصاميًّا استطاع بسعيه وحسن تدبيره ان يشقّ لنفسه طريقاً الى الجاه وان يصبح في عداد ذوى الثروة الطائلة. فكان بذالا في غير اسراف. متصدقاً في غير تقتير. ولم يلهه متاع الدنيا وتدبير المال عن القيام بواجبه الديني ولكنه كان قليل الاعلان عن نفسه من هذه الناحية. محافظاً على عاداته الشرقية الموروثة فقد حافظ على زيه حتى النهاية ولم يأبه لمظاهر المدنية الخلابة التي لاتتفق والدين بل حارب تلك المظاهر في سره وعلنه ودعا الناس الى عدم الاسترسال فيها والى التمسك بالعروة الوثقى من عاداتنا القومية فكان من هذه الوجهة مجاهداً له جزاء المجاهدين الصابرين

وخلاصة القول أن المرحوم كان وثيق العلاقة بالحياة العامة في مصر. له مركز ممتاز في أوساطها المختلفة. وقد انعم عليه المغفور له السلطان حسين بلقب « صاحب الفضيلة والارشاد » وانعم عليه جلالة الملك فؤاد برتبة « الباشوية » فكان اول من جمع بين هذين اللقبين في مصر. هذا عدا ما انعم عليه به من اوسمة ونياشين أخرى (١)

﴿ هبته الكبرى ﴾ وكان الفقيد ابى الا ان يتوج اعماله المجيدة بتاج الخلود. وأبى الا ان تكون لمصر مكانتها بين الامم الحية. واراد ان يرفع المصريون رءوسهم بين الاجانب ساهمين بان في وادي النيل رجالاً يحبون الخير للخير ويبذلون في سبيله أعز ما ملكت ايديهم. هزته الاريحية ودعاه داعي الجود فتبرع هو والسيدتان الصونتان حرمه وكريمته

(١) وكان للفقيد صفحة سياسية في تاريخ مصر الحديث لم نثبتها هنا لان المقتطف مجلة غير سياسية

باقامة مستشفى خيري ، وقدم قطعة الارض اللازمة لبناء هذا المستشفى ومساحتها ١٥ الف متر مربع تقدر قيمتها بمبلغ خمسين الف جنيه وتبرع لانشاء المستشفى بمبلغ ١٠٠٫٠٠٠ من الجنيهات منها ٤٠٫٠٠٠ للبناء والتأثيث و ٦٠٫٠٠٠ ينفق على المستشفى من ريعها

وقد أعلن هبته لرئيس الوزراء في ٥ اغسطس سنة ١٩٢٨ فقابل دولته الخبر بالفرح والثناء وذهب توًّا الى قصر المنتزه فمثل بين يدي جلالة الملك وأطلع جلالته على تفصيل هذا المحسن الجليل فسرَّ جلالته كثيراً واثنى على فضيلة الواهب وابدى ارتياحه لهذا العمل البار واوعز بالتعجيل به تلبية لرغبة الواهب . وفي ١٤ أغسطس سنة ١٩٢٨ قرر مجلس الوزراء قبول الهبة وشكر سعادة الواهب واسرته على هذه الهبة الجليلة . وفي ٢٢ سبتمبر سنة ١٩٢٨ تسلم مندوبو الحكومة قطعة الارض التي يقام عليها المستشفى من سعادة الواهب

وفي منتصف الساعة الرابعة بعد ظهر يوم السبت الموافق ٢٤ نوفمبر سنة ١٩٢٨ احتفلت وزارة الاشغال بوضع الحجر الاساسي في بناء المستشفى الخيري بحضور دولة رئيس الوزراء وفخامة المندوب السامي وفضيلة شيخ الاسلام واصحاب المعالي الوزراء وعظماء مصر وكبار الجاليات الاجنبية وكل مسئول من رجال الطب والعلم والادب في البلاد . وكان الاحتفال فخماً شائقاً دل على تقدير عظيم لصاحب تلك الاريحية

ذلك هو العمل الخالد الذي قام به المرحوم المترجم له . وقد اشترط ان يكون المستشفى « عامًّا وان يقبل فيه جميع المرضى مجاناً بدون نظر الى جنسياتهم او دياناتهم . . . » انتشر خبر هذه الهبة وتحدثت بها الجرائد في اقطار العالم. فقالت عنها صحف (التايمز) و(الايجبشيان غازيت) «ان مثل هذه الهبة للاغراض السامية لم يسبق لها مثيل في مصر حيث لم تبدُ مثل هذه الروح من قبل . والمأمول ان يقتدي كثيرون من الاعيان الموسرين بهذه القدوة الشريفة» وكان الفقيد غبطة بعمله المبرور انه اول من سعد به فقال: « وقد نلت فعلاً بعملي هذا سعادة هذه الدار الدنيا فان اللذة التي اشعر الآن بها لاتساويها كل مسرات الحياة ولذاتها من جاه ومال وحسب ونسب وما الى ذلك»

ولما شرع جماعة من ذوي النخوة وممن يقدرون الواجب في عمل حفلة تكريم لهذا المحسن العظيم بادر فارسل لهم يعتذر ويقول في خطاب اعتذاره: «وارجو ان تعدلوا عن هذه الفكرة حتى تساعدوني على توجيه عملي خالصاً لوجه الله وحده وتبعدوا بي عن مواطن الزهو الذي قد يشوب هبتي بشائبة لا ارضاها». وكان الفقيد يمني النفس بحضور حفلة افتتاح المستشفى لتقر عينه بما صنع ولكن القدر جرى بأمر آخر فاستأثرت به المنية في الخامس من شهر فبراير سنة ١٩٣٠ الموافق ٦ من رمضان سنة ١٣٤٨ هجرية . واحتفل بتشييع جنازته احتفالاً مهيباً رهيباً . ثم ووري التراب في المكان المعدّ له في المستشفى قبل ان يتم اعداده. وقد علمت ان كريمتهُ تنوت القلوب مائدة الية على أتمام كل اعمال الاحسان التي شرع فيها المغفور لهُ والدها سيد يوسف